AL-TAFAHOM

التفاهم

50

السنة الثالثة عشرة ■ خريف 2015 م. / 1436 هـ.

فصلية ■ فكرية ■ إسلامية

رئيس التحرير

عبدالرحمن السالمي

مستشار التحرير

رضـوان السـيـد

تصدر عن :

وزارة الأوقـاف والشـؤون الـديـنـيـة

سلطنة عُمان ـ مسقط

ص.ب. : 3232 الرمز البريدي 112 روي

وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

مجلة التفاهم

هـاتف : 24644031 ـ 24644032 968 +

فاكس : 24605799 968 +

البريد الالكتروني :

tafahom.om

al.tafahoom@gmail.com

www.altafahom.net

الرؤية القرآنية لدعوات الرسل وشمولية الرسالة

عبد الرحمٰن حللي

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: 13].

يشغل الحديث عن الرسل والرسالات حيزاً واسعاً من آيات القرآن الكريم؛ فقد تواترت الكلمات المشتقة من جذر (رسل)، والمستعملة بمعنى اصطلاحي أكثر من أربعمائة مرة، فيما تكرر جذر (نبأ) بمعناه الاصطلاحي نحو ثمانين مرة، ويرد نحو ثلث هذه الأعداد بمعنى عام غير مقصود به رسولٌ أو نبيٌ بعينه، فيما خُص بالذكر من الأنبياء بأسمائهم خمسة وعشرون نبياً ورسولاً، وهم بعض من أرسلهم اللّه، فقد أشارت الآيات إلى كثرة عدد الرسل، فلم تخلُ أمة من رسول، ويلفت النظر في الآيات ثراء الحديث عن مجموعة معينة من الرسل، وخاصة رسل بني إسرائيل ومن ذكروا بأسمائهم في سورة الأنعام[1]، ويأتي موسى عليه السلام في المرتبة الأولى

1 ـ منهم ثمانية عشر نبياً ورسولاً ذكرت أسماؤهم في موضع واحد من القرآن في سورة الأنعام، ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ =

أستاذ متخصص في الدراسات القرآنية، زائر في جامعة برلين.

من حيث عدد تكرار اسمه في القرآن (136 مرة)، يليه إبراهيم عليه السلام (69 مرة)، ثم نوح عليه السلام (43 مرة)، ثم لوط عليه السلام (27 مرة) ثم عيسى عليه السلام (25 مرة) ثم باقي الأنبياء يتفاوت ذكر أسمائهم دون العشرين.

هذه الصورة العامة للحديث عن الرسل والرسالات في القرآن، تثير عدداً من الأسئلة جديرة بالتأمل، منها ما يتصل بسبب تخصيص مَنْ ذُكر من الرسل وتفضيل أخباره وتكرار الحديث عنه دون آخرين لم يذكروا أو ذكروا عرضاً، ومنها ما يتصل بالرؤية التي يقدمها القرآن عن كل رسالة من خلال مضمون دعوة من تحدث عنهم من الرسل، وثالثاً ما المشترك بين دعوات الرسل؟ وما دلالة ذلك في بعده الإنساني؟ سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات من خلال استعراض دعوات الرسل في القرآن وفق التسلسل التاريخي، مع التركيز على ما أبرزه القرآن في كل حالة بما يجيب عن سؤال الخاص والمشترك بين الرسل، ويعبِّر عن المقصد القرآني من سرد قصة كل رسول ودعوته.

1ـ آدم ونوح: الهداية والتكريم والعدل

إن إشارات القرآن المتكررة إلى كثرة الرسل وتعددهم بتعدد الأُمم مع اقتصاره على ذكر قلة منهم يدل على أن القرآن ليس مشغولاً بالتأريخ لحياة الأنبياء والرسالات، وإنما يتحدث عنهم لأغراض أخرى تخص المخاطبين في عصر نزول القرآن، وهي أغراض تبدو صريحة في مواطن كثيرة من الحديث عن الرسل، أبرزها ما ورد عقب ذكر أكبر عدد من الأنبياء والرسل في سياق واحد، ثم وصفهم الله بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، هذا الوصف يتناسب مع ما ورد في فاتحة الكتاب التي

= عَلِيمٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 83 ـ 86]، ويبقى بعدهم سبعة توزع ذكرهم في آيات أخرى وهم: إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ومحمد عليهم السلام.

تُطلب فيها الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هدي إليه الذين أنعم الله عليهم، كما تنسجم هذه الغاية مع أول وصف يرد للقرآن في مطلع سورة البقرة، وأنه هدى للمتقين، كما وُصفت التوراة والإنجيل بأنهما أنزلا هدى [آل عمران: 3 ـ 4]، هذا التوافق بين تطلع الإنسان للهداية إلى الاستقامة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ مع تعريفها بأنموذج ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ في سورة الفاتحة، ثم وصف القرآن الأنبياء بأنهم أسوة في الهداية، ووصف القرآن نفسه والكتب المنزلة قبله بأنها هدى، ينبغي أن يكون مفتاح فهم الحديث القرآني عن الرسالات والرسل.

إنّ إشارات القرآن المتكررة إلى كثرة الرسل وتعددهم بتعدد الأُمم مع اقتصاره على ذكر قلة منهم يدل على أن القرآن ليس مشغولاً بالتأريخ لحياة الأنبياء والرسالات.

فكان من الطبيعي أن يُخَصّ بالذكر من الأنبياء من يكون للحكاية عنه غرض هدائي في عصر نزول الوحي، وهم الرسل الذين يمكن للمخاطبين في عصر نزول الوحي أن يستحضروا تاريخهم سواء من مصادر دينية (الحديث عن الأنبياء المعروفين لدى أهل الكتاب)، أو من الذاكرة العربية (الحديث عن إبراهيم وأنبياء العرب)، أو ممن عمَّ الحديث عنهم في كل الأديان والثقافات (آدم ونوح)، أما الرسل الآخرون للأُمم الأخرى فلم يكن ثمة مخاطَبٌ مباشر يعنيه الحديث عنهم بأعيانهم في عصر النزول، فجرى الحديث في القرآن عن الرسل إلى الأُمم الأخرى بالإجمال، وبما يحقّق غرض الهداية الذي أشرنا إليه، فتحدّث القرآن عن الرسل والنبيين وكأنهم شخص واحد يمر بتجربة واحدة مع اختلاف الزمان وتعدد الأُمم والأقوام، وجرى في سياق ذلك الإشارة إلى سنن تاريخية في حياة الإنسان والأمم، وكان محورها الموقف الأخلاقي من الله والإنسان.

أهمية الهداية كغاية لرسالات الأنبياء تتجلّى في دورها الأخلاقي؛ إذ تُمكِّن الإنسان من تجاوز قابليته لانتهاك نظام الكون (يُفْسِد فيها) وحقوقِ

الإنسان (يسفك الدماء)، والتي كانت عنوان تساؤل الملائكة عن معنى خلق آدم (الإنسان) [البقرة: 30]، فكان الجواب الإلهي على هذا التساؤل هو الحديث عن الأسماء والكلمات، فاقترن ذكر بدء الخلق وقصة آدم عليه السلام بالحديث عن غاية الوجود وسننه، والمهمة الأخلاقية للإنسان في الأرض، وهي الأمانة التي حملها، ولم يُترك وشأنه فكان التأييد الإلهي حاضراً منذ البداية، وهو البعد الذي جهلته الملائكة، وهذا التأييد تجلى في بُعدين، الأول: هو كفاءة الإنسان الفطرية التي تمكّنه من المعرفة، وقد رمز إليها بتعليم الأسماء، والبعد الثاني: الهدي الإلهي الذي رمز إليه بتلقي الكلمات، فكان الإنسان بذلك مكلفاً ومختاراً بين أن يستقل بكينونته ومعارفه التي تتنازعها قيم الخير والشر، وبين أن يعززها بهدي إلهي رافق الإنسان منذ بدء الخلق ودخول عالم التكليف: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، هذا الخطاب الموجه لآدم هو خطاب للإنسانية؛ لما يحمله من معانٍ ذات صلة بمهمة الإنسان (كخليفة في الأرض)، لذا نجد آيات كثيرة تعمم الخطاب: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾؛ تأكيداً على هذا البعد المطلق في دعوة آدم، والتي تضمّنت مفاهيم تأسيسية تكررت في دعوة جميع الرسل، فالحديث عن آدم عليه السلام لا يخص شخصه إنما يقصد به الإنسانية، فموقف الشيطان من آدم لا يخصه إنما هو موقف يشير إلى صراع الخير والشر الذي يواجه الإنسان في الحياة إلى يوم الحساب، فكان ذكره حاضراً منذ بدء التكليف.

هذا الصراع بين الخير والشر كان له أنموذجان من التعامل في حكاية ولدي آدم [المائدة: 27 ـ 31]، حيث بدأ سفك الدماء مبكراً بقتل أحد ولدي آدم لأخيه المسالم، وأعقب هذا القتلَ ندمٌ وتوبة، وكانت **التقوى** هي المعنى الذي استحضره الأخ المسالم مقابل سعي أخيه في سفك دمه، والتقوى تقترن بالهداية القرآنية وهدي الرسالات.

وفي تذكير القرآن بهذه الجريمة ـ سفك الدماء ـ في قصة ولدي آدم ـ والتي ستتكرر نماذج لها في قصص الأنبياء اللاحقين ـ تأكيد للقيمة الأسّ

التي أكدت عليها دعوة آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، فالاعتداء على حياة أي فرد اعتداء على آدمية الإنسان وتكريم الله له، والعكس كذلك؛ فإن أي إحياء للإنسان من مظلمة أو مهلكة إنما هو إحياء لكل الناس، وفي هذا البعد **تكريس للوحدة الإنسانية المتعالية على أي بعد آخر**، فكرامة الإنسان ـ حياً وميتاً ـ حق مقرر مع أول وحي سماوي، وتتتالى التأكيدات عليه في دعوات الرسل.

هذا الصراع بين الخير والشر كان له أنموذجان من التعامل في حكاية ولدي آدم [المائدة: 27 ـ 31]، حيث بدأ سفك الدماء مبكراً بقتل أحد ولدي آدم لأخيه المسالم، وأعقب هذا القتلَ ندمٌ وتوبة.

تتأكد هذه المعاني المقررة في دعوة آدم مع رسالة نوح عليه السلام الذي دعا إلى التوحيد والتقوى[1]، وحذَّر من الظلم والطغيان[2] وتقسيم الناس إلى أشراف وأراذل[3]، واستأنف رسالة آدم عليه السلام، وأسست دعوته لوحدة الدين السماوي الذي جاء الرسل لإقامته[4]، وتبدو السياقات التي ورد فيها ذكر نوح واضحة الربط من حيث وظيفتها بالنسبة للرسالة الخاتمة، فهي تمثل عمقها التاريخي فيما دعت إليه[5].

1 ـ المؤمنون: 23، الأعراف: 63، المؤمنون: 23، الشعراء: 106 ـ 108، نوح: 3.

2 ـ وصف القرآن قوم نوح بالظلم سبع مرات، انظر: هود: 44، العنكبوت: 14، المؤمنون: 27 ـ 28، نوح: 24 ـ 28.

3 ـ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]، ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: 111].

4 ـ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]

5 ـ يلاحظ وجود تركيز قرآني على الربط بين نوح ومحمد صلى الله عليه وسلم وبين قوميهما من حيث منهج الدعوة والموقف منها، هذا فضلاً عن الدور الوظيفي للقصة في الخطاب القرآني من الناحية النفسية والدعوية (انظر: محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم: 329 وما بعدها، ط 4 مكتبة الأنجلو المصرية 1972).

ومن لــوازم الدعوة إلــى التوحيد تحقيق **المســـاواة بين الناس ونبذ الظلم وإقامة العدل**، وهذا ما سعت إليه رسالة نوح، ويتجلّى ذلك واضحاً في الحوار بينه وبين قومه، إذ دعاهــم إلى التفكر والتأمل، معتمداً الحوار والتذكير والدعاء لهم؛ إذ الإكراه غير معتدٍّ به في الدعوة، بل هو مستغرب حتى عند الوصول إلى طريق مسدود ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هــود: 28]، **فكان نوح بذلك مقرراً مبدأ حرية الاعتقاد التي هي أصل مشـــترك في دعوة جميع الرسل.**

ويجدد نوح موقفه الأخلاقي بمساندة المستضعفين من قومه رغم ما تعرض له مــن أذى ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [هود: 29]، إلـــى أن انتهى الظلم الذي بلغ به قومه شـــأواً كبيراً بتدخل إلهي حسم ســـنين طويلة من ظلمهم بالطوفان، وفي هذه النهاية نلاحـظ التركيز القرآني على صفة خاصــة بالمغرقين، وهي الظلم وليس الكفر[1]، وفي هذا دلالة مهمة على **مركزية العدل** كمقصد أساسي من دعوة نوح، ولئن كان هذا البعــد ظاهراً في دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنه لا يخصّها فهو بُعد إنساني سنجده في كل الرســالات، فكان الإصلاح الديني والدعوة إلى التوحيد المدخل لعلاج الظلم.

2 ـ دعوة إبراهيم: وحدة الرسالة الإلهية وعالميتها

مع دعــوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ينتقل القــرآن إلى بُعد جديد فــي الحديث عن الرسل، وهو الحديث عن حياة الأمم، فشـــخصية إبراهيم مركزية بين مجمل الرســل الذين ذكروا في القرآن الكريم، وله مكانتــه لدى مختلف الطوائف والنحَل، فالمشــركون وأهــل الكتاب يعترفون بفضله، ويشــرفون بالانتســاب إليه[2]، وقد توزع ذكره في خمس وعشرين سورة من القرآن الكريم، معظمها

1 ـ ﴿ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: 44]، ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 14]، ﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون: 28]

2 ـ انظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب (تفســير الرازي)، ط1، البهية المصرية، 1935، 36/4، 44.

مكية، ولهذا الحضور المبكر دلالاته فيما يخص موقف المشركين من الدعوة المحمدية، والذي يشبه الموقف من دعوة إبراهيم[1]، وكونه مرجع التيار الحنيفي في الجزيرة العربية، أما الآيات المدنية فركزت على الخلاف مع أهل الكتاب حول شخصية إبراهيم عليه السلام، كما أشار القرآن [النجم: 36 ـ 56، الأعلى: 19] إلى تلقي إبراهيم صحفاً تشتمل على مبادئ وقيم جاء بها الرسل على مختلف العصور.

ومن أهم محاور الحديث القرآني عن دعوة إبراهيم عليه السلام الربط بينه وبين الرسول الخاتم من حيث الإشارة الإبراهيمية إليه أو استرجاع إبراهيم في الرسالة الخاتمة[2]، وعلاقة إبراهيم مع الرسل الآخرين، وذلك من حيث وحدة الأصل والوحي والتشريع وتشابه المواقف والعلاقة مع الأقوام[3]، والتذكير بدين إبراهيم عليه السلام وملته والتأكيد على الإسلام والحنيفية، ونفي انتسابه إلى اليهودية أو النصرانية أو الشرك[4]، فذكْر إبراهيم في القرآن يؤكد على وحدة الرسالة الإلهية والربط بين القائمين عليها وأقوامهم ومواقفهم؛ ليؤول ذلك إلى تأكيد المضمون التوحيدي للدين.

مع دعوة إبراهيم عليه السلام ينتقل القرآن إلى بُعد جديد في الحديث عن الرسل، وهو الحديث عن حياة الأمم، فشخصية إبراهيم مركزية بين مجمل الرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم.

فيتابع إبراهيم رسالة التوحيد، ويعرض القرآن من خلاله وجهاً آخر من المعاناة من أجلها، فلئن كانت مصيبة نوح عليه السلام بكفر ولده الذي لم يستجب

1 ـ انظر: تهامي العبدولي، النبي إبراهيم في الثقافة العربية الإسلامية: 102، ط1، دار المدى ـ دمشق 2001، وقد فسر هذا الحضور المكي لإبراهيم عليه السلام بأسباب نفسية تتعلق بشد أزر الرسول.

2 ـ انظر: البقرة: 129، آل عمران: 68، النساء: 163، النحل: 123، الممتحنة: 4.

3 ـ انظر: البقرة: 136، آل عمران: 33 ـ 84، الأنعام: 84 ـ 90، مريم: 58، الأحزاب: 7، ص: 45، الشورى: 13، النجم: 36 ـ 37، الحديد: 26، الأعلى: 19.

4 ـ انظر: البقرة: 130 ـ 131 ـ 135 ـ 140، آل عمرن: 65 ـ 67 ـ 95، النساء: 125، الأنعام: 161، يوسف: 38، النحل: 120 ـ 123، الحج: 78.

لدعوته فكان من المغرقين؛ فإن معاناة إبراهيم عليه السلام ستكون مع أبيه آزر الذي كان يعبد ما جاء إبراهيم لتحذير قومه منه، ولم يكن لديه من حيلة سوى التبرؤ من فعل قومه[1] الذين خططوا لحرقه. وكما هو حال نوح فإن إبراهيم لم يكن بعيداً عن تحدي الطغاة الذين تألهوا فجابههم بما ادعوه من إحياء الموتى [البقرة: 258].

وفي دعوة إبراهيم عليه السلام نجد نسقاً جديداً من الحديث عن الأنبياء، فمعه تبدأ تفاصيل جديدة من دعوة الرسل، فتظهر مفاهيم لم تكن متداولة لدى الرسل من قبل، كالحديث عن **شعائر وممارسات** نسكية مثل إقامة **الصلاة** [إبراهيم: 37 ـ 40]، والدعوة إلى **الحج** [الحج: 26 ـ 28]، فضلاً عن مفاهيم تأسيسية **كالدين**[2] **والملة**[3] **والحنيفية**[4]، وتتكرّر مفهومات أخرى تداولها الرسل مثل: **الإيمان**[5] **والإسلام**[6] **والكفر**[7]، وكذلك بعض المبادئ الأخلاقية، ويفصّل القرآن بعض المبادئ التي وردت في صحف إبراهيم عليه السلام وعلى لسان غيره من الأنبياء، والتي أهمها تحديد **مسؤولية الإنسان عن سلوكه**، وحصر هذه المسؤولية بالفاعل، والتذكير بالجزاء والحساب [النجم: 36 ـ 56، الأعلى: 19].

ويرمز بناء البيت وتشريع الحج إلى التجسيد المكاني الرابط بين مختلف الرسل، وربط العالم بهذا المكان [الحج: 26 ـ 29]، الذي سيشهد ختم الرسالات لاحقاً، فرسالة الإسلام هي الدعوة التي تواصى بها الرسل بدءًا من إبراهيم عليه السلام فمَنْ بَعْده مِنْ أولاده [البقرة: 130 ـ 133]، بوصفه الدين القيم والملة التي لا يُقبل الحيد عنها، والتي أسميت بالحنيفية،

---

1 ـ الزخرف: 26 ـ 28، الممتحنة: 4 ـ 5.

2 ـ البقرة: 133.

3 ـ البقرة: 130، 135، آل عمران: 95، النساء: 125، الأنعام: 161، يوسف: 38، النحل: 123.

4 ـ البقرة: 135، آل عمران: 67، 95، النساء: 125، الأنعام: 79، 161، النحل: 120، 123.

5 ـ البقرة: 259، 126، العنكبوت: 26.

6 ـ البقرة: 128، 131، 132 ـ 133.

7 ـ البقرة: 126، 258.

وإمامة الناس أصبحت بعداً جديداً في دعوة الرسل، فقد اختير إماماً **للناس** [البقرة: 124]، وغدت ملته ملة لكل **الناس**، أمروا باتباعها [البقرة: 130]، وأُمِروا بالتأسي به [الممتحنة: 4 ـ 5]، والأذان **في الناس** بالحج، وإقام الصلاة دعوة إبراهيم لذريته [إبراهيم: 35 ـ 41]، ويقترن ذكر إبراهيم بغيره من الأنبياء ضمن نسق يؤكد هذا البعد العالمي[1].

كل هذه المعطيات تدل على **عالمية الخطاب الإبراهيمي ومركزيته** في دعوات الرسل، فالإسلام الذي ذكر في دعوة نوح سيأخذ بعداً جديداً مع دعوة إبراهيم من خلال عَلَميته على الدين القيم، وسيتواصى به أبناؤه ربطاً بما سيأتي من بعده، فالحق المتعالي الذي تصبو إليه الحنيفية الإبراهيمية هو ميزة رسالة الإسلام (دعوة الأنبياء)، وبالأخص في رفضها الاستئثار بالله كما ستؤول إليه دعوة موسى عليه السلام من بعده، أو الاستئثار بالكلمة كما ستؤول إليه دعوة عيسى عليه السلام من بعده.

ما بين إبراهيم وموسى عليهما السلام يعرض القرآن جوانب من دعوات رسل آخرين ذكروا لإبراز الجانب الأهم من رسالاتهم ودورهم في بناء الصورة الكاملة للرسالة الإلهية في تجليها التاريخي.

3 ـ الأنبياء ودعوة الأقوام: نماذج وسنن إلهية

ما بين إبراهيم وموسى عليهما السلام يعرض القرآن جوانب من دعوات رسل آخرين ذكروا لإبراز الجانب الأهم من رسالاتهم ودورهم في بناء الصورة الكاملة للرسالة الإلهية في تجليها التاريخي، فنجد الحديث عن **هود وصالح ولوط وشعيب** عليهم السلام كأنبياء اقترن ذكرهم بذكر أقوامهم، كما عُرف بعضهم بأنهم من أنبياء العرب[2]، وقد وردت أخبارهم

1 ـ انظر حول علاقة إبراهيم مع الرسل: البقرة: 136، آل عمران: 33 ـ 84، الأنعام: 84 ـ 90، التوبة: 70، مريم: 58، الأحزاب: 7، ص: 45، الشورى: 13، النجم: 36 ـ 37، الحديد: 26، الأعلى: 19.

2 ـ وهم هود وصالح وشعيب (انظر حول عروبتهم وأقوامهم: محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ط: دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية 1995، 239/1، 265، 297).

والتذكير بهم في آيات متتالية في سور معظمها مكي[1]، وقد انفرد القرآن بذكر بعضهم، فلم يرد عنهم شيء في التوراة[2].

فالآيات التي ذكر فيها **هود** عليه السلام[3] تذكّر بدعوته قومه إلى التوحيد والتقوى، ونهيهم عن الطغيان والاستبداد، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وتحذيرهم من عذابه، والحديث عن قومه عاد يذكر بالمصير السيئ الذي آلوا إليه، بعد أن كانوا ينعمون بالرفاه، وتمكنوا في الأرض، وعمروا البنيان، وأشادوا المصانع، وتجبروا في الحكم، دون أن ينفع ذلك في الحيلولة من عذاب الله، كما هو مصير قوم نوح من قبل: رخاء مادي، فطغيان وجحود، فتدخل إلهي ينهي مرحلتهم ليستخلف غيرهم.

فكانت «عاد» أنموذجاً لسُنة الله في الأمم التي تطغى مادياً، ويسودها الظلم والتكبر الذي اشتركت دعوات الرسل في محاربته، فاستخلف الله مِنْ بعدهم «ثمود» فأَرسل إليهم **صالحاً** عليه السلام، يدعوهم **إلى التوحيد ويحذرهم من الطغيان**، ويذكرهم بنعم الله عليهم، وباستخلاف الله لهم من بعد عاد[4]، ويلاحَظ في الحديث عن صالح وقومه ثمود الاقتران والتشابه مع الحديث عن هود وقومه عاد وقبلهم قوم نوح[5]، وذلك في سياق ذكر نماذج من القوميات التي لم تستجب لدعوة الرسل، وآلت إلى الزوال بعد تاريخ من الحضارة.

أما **لوط** عليه السلام الذي عاصر إبراهيم وآمن به، فتتميز التفاصيل التي وردت عن دعوته بالتركيز على **الانحراف الأخلاقي** الذي أدى إلى هلاك

1 ـ وفي هذا دلالة على حضور ذكرهم عند العرب في الجاهلية، وكون التذكير بهم يرجع إلى علمهم بقصصهم وما جرى لهم، لا سيما وأنها تمثل قصصاً لأجداد العرب.

2 ـ لم تُذكر قصة هود مع قومه عاد ولا صالح مع قومه ثمود في التوراة، كما أن قصتهما كانتا مشهورتين عند العرب قبل الإسلام كشهرة إبراهيم وقومه (انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 141/1، ط1، دار الكتب العلمية ـ بيروت، 1407هـ).

3 ـ الأعراف: 65 ـ 72، هود: 50 ـ 60، الشعراء: 123 ـ 140.

4 ـ انظر: الأعراف: 73 ـ 79، هود: 61 ـ 68، الشعراء: 141 ـ 159، النمل: 45 ـ 53.

5 ـ فضلاً عن توالي قصصهم في السور التي وردت فيها نجد الاقتران بينهم في آيات كثيرة: هود: 89، التوبة: 70، إبراهيم: 9، الحج: 42، غافر: 31.

قومه[1]، حتى أصبحوا مثلًا يضرب لعاقبة الجحود والطغيان[2]. أما الفساد الاقتصادي فركزت عليه دعوة **شعيب** عليه السلام إلى أهل المدائن وأصحاب الأيكة، وذكروا في سياق من سبقهم من القوميات الهالكة من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وكان شعيب يذكّر قومه بهم [هود: 89]، وكانت دعوته تكرر ما جاء به الرسل قبله من أسس الرسالة الإلهية المتعلقة بالتوحيد والتقوى والتذكير بالآخرة، وكان لموقع (مَدْين) الجغرافي والوظيفة التجارية التي كانت تقوم بها على طرق التجارة خصوصية، جعلت دعوة شعيب عليه السلام تركز على جانب خلقي من الرسالة الإلهية متصل **بالجانب الاقتصادي**، فحذّر من تطفيف المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض[3].

أما لوط عليه السلام الذي عاصر إبراهيم وآمن به، فتتميز التفاصيل التي وردت عن دعوته بالتركيز على الانحراف الأخلاقي الذي أدى إلى هلاك قومه، حتى أصبحوا مثلاً يضرب لعاقبة الجحود والطغيان.

فكأن رسالات الأقوام في القرآن **تعرض نسق الرسالة الإلهية الكلي وتفاصيله عبر التاريخ**، واختصاص بعض الأنبياء بتفصيل بعض الجزئيات مع أقوامهم إنما هو عنصر تكامل مع دعوة غيره من الرسل، وحلقة في تجلي الرسالة الإلهية التي تسير نحو الختم والاكتمال.

أما **إسماعيل واسحق ويعقوب** عليهم السلام فيدور ذكرهم في القرآن حول شخصية أبيهم إبراهيم عليه السلام، فجعل الله النبوة والكتاب في ذريتهم[4]، ويتتابع ذكرهم في آيات أخرى لتأكيد ما ورد في حق إبراهيم من حيث انتماؤه إلى الدين الحق وانتسابه إلى الإسلام، وكذلك أبناؤه يوصون أبناءهم بالإسلام،

1 ـ انظر: الأعراف: 80 ـ 84، هود: 69 ـ 83، الحجر: 57 ـ 77، الشعراء: 160 ـ 175، النمل: 54 ـ 58، العنكبوت: 26 ـ 35، الصافات: 133 ـ 138، القمر: 33 ـ 39.

2 ـ انظر: هود: 89، الحج: 43، ص: 13، ق: 13، التحريم: 10.

3 ـ انظر: الأعراف: 85 ـ 93، هود: 84 ـ 95، الشعراء: 176 ـ 191، العنكبوت: 37.

4 ـ انظر: الأنعام: 84، هود: 71، إبراهيم: 39، مريم: 49، الأنبياء: 72، العنكبوت: 27، الصافات: 112 ـ 113.

وأبناؤهم ينسبون الإسلام إلى آبائهم[1]، وتأكيداً على وحدة الرسالة يؤمر أتباع الرسالة الخاتمة بالإيمان بما أؤتي إبراهيم وأبناؤه إسماعيل وإسحاق ويعقوب[2]، وينفي القرآن التصنيف الطائفي اليهودي أو النصراني لإبراهيم وأبنائه [البقرة: 140]، فتتوارد الآيات على لسان الأنبياء، يؤكد السابق منهم واللاحق على وحدة الوحي والدين والمشترك بين الرسالات.

أما قصة **يوسف** عليه السلام ـ والتي وردت في سياق واحد في سورة واحدة حملت اسمه ـ فتؤكد انتسابه إلى ملة **التوحيد: الدين القيم**، ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، كما تضمنت قصة يوسف بعض المشاهد التي تعرض لجوانب من صراع الإنسان في الحياة من أجل القيم العليا التي تدعو إليها رسالات الأنبياء، فسَرَد القرآن من خلال قصته حياة رسول عاش كواحد من الناس في ظروف مختلفة، تعرض فيها لمختلف الاحتمالات في حياته وفي قيمه، واستطاع فيها أن يكون أنموذجاً لما تبغيه رسالة الله من الإنسان، وقد وصف القرآن قصته بأحسن القصص؛ لما تشتمل عليه من معانٍ وأبعاد، تجعل منها أنموذجاً في منهج الرسالة ومضمونها العقدي والأخلاقي.

وذِكر **إدريس وإلياس واليسع وذي الكفل** عليهم السلام على قلته يأتي في سياق ذكر عدد من الأنبياء الذين عددهم القرآن واصفاً مواقفهم وصبرهم، وكونهم من الأخيار الذين هداهم الله وأمر باتباعهم [الأنعام: 87 ـ 90]، **وكذلك أيوب** عليه السلام مع تركيز على ما تميز به من صبر على البلاء، حتى عُدّ أنموذجاً فيه، ولما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في مواجهة المصائب والابتلاء. أما **يونس** عليه السلام فخص سياق الحديث عنه بالاستشهاد بقومه، وكيف أنقذهم إيمانهم من العذاب وتمتّعوا بالحياة الدنيا [يونس: 98]، بخلاف الأقوام الآخرين الذين طغوا فهلكوا، أما شخصيته فقد عرض القرآن موقفه من قومه، والذي تمثل في سرعة غضبه وإعراضه عنهم، فالآيات تعطي أنموذجاً ليونس حين يغضب ويتعجل مقابلاً لأنموذج أيوب الصابر المحتسب،

1 ـ انظر: البقرة: 132 ـ 133، يوسف: 6 ـ 38.

2 ـ انظر: البقرة: 136، آل عمران: 84.

وهما صفتان لا يخلو منهما الإنسان، فدور الرسالة في حياة الإنسان، هو الدفع نحو تقويم سلوك الإنسان وتجاوزه للأخطاء التي قد يورطه فيها طبعه عن قصد أو من دونه، وبهذا البعد نفهم عنصر التكامل في رسالتيهما مع دعوة غيرهما من الرسل الذين أوتوا وحياً.

4 ـ دعوة موسى عليه السلام: محاربة الطغيان وتحقيق العدل

تشغل شخصية موسى عليه السلام المساحة الأكبر في النص القرآني من بين الرسل، فتحدثت الآيات عن حياته، وعن إيتائه الكتاب والصحف وتأييده بالآيات، وقضايا تتعلّق برسالته وعلاقته مع الرسل[1]، وفصلت قصته مع فرعون، ومع بني إسرائيل وعنادهم وموقفهم منه في مختلف المراحل[2]، وتُعدّ شخصيته مركزية بين أنبياء بني إسرائيل؛ لكونه واضع الشريعة الإسرائيلية[3]، ويتحدّث القرآن عن مرحلة الوحي والنبوة والصراع مع فرعون، في ظروف كان موسى عليه السلام أعرف الناس بها، عندما نشأ طفلاً في بلاط فرعون في بيئة أصبح الظلم والاستبداد والطغيان عنوانها الأبرز[4].

ذِكر إدريس وإلياس واليسع وذي الكفل عليهم السلام على قلته يأتي في سياق ذكر عدد من الأنبياء الذين عددهم القرآن واصفاً مواقفهم وصبرهم، وكونهم من الأخيار الذين هداهم الله وأمر باتباعهم.

1 ـ الآيات: النمل: 7 ـ 14، النازعات: 15 ـ 26، غافر: 53 ـ 54، البقرة: 87، الأنعام: 91، 154، فصلت: 45، مريم: 51 ـ 53، الأنبياء: 48، السجدة: 23، آل عمران: 84، هود: 17، الإسراء: 2، المؤمنون: 49، الفرقان: 35، الأحزاب: 7، الشورى: 13، الأحقاف: 12، 30، النجم: 36، الأعلى: 19.

2 ـ الآيات: طه: 80 ـ 101، الأعراف: 138 ـ 156، 159 ـ 171، البقرة: 40 ـ 86، 92 ـ 93، 246 ـ 251، النساء: 153 ـ 164، المائدة: 20 ـ 26، الصف: 5.

3 ـ انظر: سعد زغلول عبد الحميد، الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام، مجلة عالم الفكر ـ الكويت، مجلد: 12، عدد: 4/1982، ص209؛ محمد خليفة حسن أحمد، ظاهرة النبوة الإسرائيلية: 150 وما بعدها، ط: جامعة القاهرة ـ دار الزهراء للنشر ـ القاهرة، 1991.

4 ـ وصف القرآن فرعون بمجامع صفات الذم والقبح، فقد جمع وقومه بين الجحود الديني: الكفر بآيات الله والتكذيب بها (الأنفال: 52، 54)، والفسق (النمل: 12)، وإضلال الناس عن الهدى (طه: 79)، والعلو في الأرض، والتفريق بين الناس (القصص: 4، يونس: 83)، والتأله: ما علمت لكم من إله =

فواجه موسى عليه السلام **طغيان فرعون مباشـــرة، وبدأ معه من قمة الطغيان الذي وصل إليه (التألـــه)**، فكما هو الحـــال في دعوة نـــوح وإبراهيم عليهما السلام وغيرهما، عندما يستشـــري الظلـــم والطغيان؛ فإن العودة إلـــى قضية الوجود والتذكير بالقوة المطلقة والدعوة للتوحيد هـــي المنطلق لمواجهة الطغاة، ثم انتقل موســـى إلى المهمة الثانية في دعوة فرعون، وهـــي **تحرير بني إسرائيل وتمكينهم من الاستجابة لرسالته**، لكن رسالة موسى عليه السلام ستأخذ بُعداً أكثر تفصيلاً مـــع أتباعه، ومع بني إســـرائيل، فلئن كانت دعوة موســـى إلى فرعون ركزت مباشـــرة على قضية التوحيد وتحرير المضطهدين الذين يكابدون ظلم فرعون وفتنته؛ فإن دعوة موسى إلى قومه ستركز على **إخراجهم مما هم فيه**، وتمكينهم من الحرية التي تؤهلهم للهدف الثاني من الرســـالة، وهو **استئناف تاريخهم الرســـالي**، فذكَّرهم بنعم الله، حيـــث جعل فيهم النبـــوة والكتاب، وأنقذهم مـــن بطش فرعون ليشـــرعوا في حياة جديدة، لكن شـــدة عنادهم وجحودهم إثـــر توالي النعم عليهـــم أدت إلى غضب الله عليهـــم، فكان الأمر الإلهي بإجبارهم على قبول التعاليم والميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقـرة: 63]، وقـــد تضمن الميثـــاق أصـــول العقائد والأخلاق والتشـــريعات التـــي بعث بهـــا الأنبياء قبل موســـى عليه السلام، لكن بني إســـرائيل نقضوا الميثاق، ممـــا يعني أنهـــم إن قبلوا الميثاق بالقـــوة؛ فإنهم لـــم يقتنعوا، به ولـــم يطبقوه ولم تنفـــع معهم القوة والإكراه في هدايتهم إلى ما فيه الرشد[1].

= غيري (القصص: 38)، والاستبداد الشـــمولي: ما أريكم إلا ما أرى (غافر: 39)، أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتـــي (الزخرف: 51)، والتعذيب (الأعراف: 141) والإفســـاد (القصص: 4)، والظلم (الشعراء: 46)، وجامع ذلك كله الطغيان إنه طغى (طه: 24، 43، النازعات: 17).

1 ـ لعل في هذا المشـــهد الذي يعرضه القرآن دلالة لاحقة لأتباع الرسالة الخاتمة التي أكدت أنه «لا إكراه في الدين» وجعلت الحوار أساساً لتبليغ الرســـالة؛ لأن الإكراه الذي لا يحق لغير الله بوصفه الخالق هو أيضاً لا ينفع في هداية الناس؛ لكونه لا ينســـجم مع قضاء الله الأزلي بكون الإنسان مكلفاً ومختاراً، فهؤلاء بنو إسرائيل قد أجبرهم الله على قبول الميثاق فقبلوه، ثم بعد أن رفع الطور عنهم عادوا إلى سابق عهدهم ونقضوا الميثاق، مما يعني أن طريق الإكراه ـ ولو كان ممن يمتلك القوة عليه أو الحق فيه ـ لا ينفـــع؛ لأن نتيجته نفاق ورياء، فكانت قصتهم في نقض الميثاق أنموذجاً عملياً يعرضه القرآن لتأكيد عدم جدوى الإكراه.

إضافة إلى **التفاصيل التي وردت في الميثاق** وردت تكاليف أخرى إلى بني إسرائيل حكاها القرآن عنهم؛ **كالقتال والخروج إلى الأرض المقدسة**؛ لكنها حرمت عليهم أربعين سنة بسبب تقاعسهم، كما حكى القرآن من دعوة موسى **حرمة القتل إلا في إطار القصاص أو محاربة الفساد**، في سياق الحديث عن أول حادثة قتل تعرض لها الإنسان، وجُعِل القتل من أعظم الجرائم؛ إذ هو اعتداء على جميع الناس، كذلك **حرمة الربا وأكل أموال الناس بالباطل**[1]، إضافة إلى تشريعات أخرى خاصة بهم **كإباحة الطعام والطيبات التي كانت محرمة عليهم، وحرمة يوم السبت**. هذه التشريعات هي ما يعترف به اليهود في كتبهم وهو ما اصطلح عليه **بالوصايا العشر**[2].

لقد تتالى الأنبياء ـ بمن فيهم موسى عليه السلام ـ على وصايا واحدة شرعها الله لهم، ووحي متشابه، فهو دين واحد، تكرر الحديث عنه، وأُمر بإقامته من قبل الجميع.

لقد تتالى الأنبياء ـ بمن فيهم موسى عليه السلام ـ على وصايا واحدة شرعها الله لهم، ووحي متشابه، فهو دين واحد، تكرر الحديث عنه، وأُمر بإقامته من قبل الجميع، وقد ورد لفظ الإسلام في سياق الحديث عن دعوة موسى عليه السلام[3]، فلا تخرج دعوته عن كونها حلقة في سلسلة رسالات الأنبياء التي تدرّجت عبر التاريخ، والتي تتفق في منهج الدعوة إلى **توحيد الله وتحرير الإنسان**، وهو الحوار والقول اللين ومخاطبة العقول والتذكير بما هو مدرك من الحقائق، كما تتكرر في تجربة موسى السنن التاريخية في موقف الرسل للطغيان والظلم، فهلاك فرعون ونجاة موسى يذكرنا بإنقاذ الله لنوح وإبراهيم عليهما السلام من كيد قومهما.

1 ـ انظر: النساء: 161.

2 ـ وردت الوصايا العشر في نسخ عديدة فقد وردت في سفر الخروج (2: 20 ـ 7) و(34: 10 ـ 26)، وفي سفر التثنية (5: 6 ـ 21)، وقد حظيت بالاهتمام والدراسة والمقارنة، ولعل من أهم ما أنجز حولها دراسة: رشاد عبد الله الشامي، الوصايا العشر في اليهودية: دراسة مقارنة في المسيحية والإسلام، ط: دار الزهراء ـ القاهرة، 1993.

3 ـ انظر: يونس: 83.

ويستأنف موسى عليه السلام دعوته إلى بني إسرائيل من حيث انتهت رسالته مع فرعون، بالاستعداد للخروج إلى الأرض المقدسة، مستكملاً سياقاً تاريخياً من الرسالات إلى بني إسرائيل، ومؤسساً لبعد جديد على المستوى الديني بنزول التوراة، وعلى المستوى الحضاري بجعل بني إسرائيل قيِّمين على بناء الحضارة، وإعمار الأرض على أنقاض تلاشي الحضارة الفرعونية[1]، فدعوة موسى عليه السلام ـ في سياقها التاريخي الخاص ببني إسرائيل ـ إنما تمثل نقلة نوعية في تاريخ الإنسانية، وتجسيداً للحضور الإلهي في التاريخ.

وهذا البعد يجدد السؤال عن دعوة موسى عليه السلام: أكانت دعوة عالمية؟ أم دعوة قومية؟[2]، وهو سؤال يتكرر بخصوص دعوة الرسل الآخرين، لكن النظر إلى وظيفة ذكر دعوات الرسل في القرآن يجرّدها من قوميتها ومحليتها، فوصف رسالاتهم بأنها ذات مقصد واحد، وأنهم هداة وبهم يقتدى ـ كما هو شأن الكتب المنزلة ـ وبالنظر إلى المحتوى أيضاً نجد أن **غاية التوحيد وتحرير إرادة الإنسان الموضوع المركزي في تجربة الرسل مع أقوامهم**، وبهذا المعنى فرسالات الأنبياء جميعاً كانت واحدة، لكن تجاربهم كانت متفاوتة في تحقيق ذلك؛ لكنها متكاملة لتشكل معاً تجربة متطورة في ظروف مختلفة من حياة الإنسان.

فرسالة موسى عليه السلام تناولت تجربة استخلاف بني إسرائيل الذين فشلوا كأمة، فأرسل الله إليهم **داود وسليمان** اللذين جمعت لهما النبوة والملك والحكمة، وذكرا في سياق تأكيد وحدة الوحي [النساء: 163]، وفي سياق ذكر إبراهيم ونوح وذريتهما، فجعل الله داود خليفة في الأرض [ص: 26]، وورثه سليمان، وذللت لهما موارد الأرض وهُيئت لهما أسباب

1 ـ انظر: القصص: 20.

2 ـ «علماء المسلمين اختلفوا في دعوة موسى عليه السلام، فبعضهم قال: كانت عالمية، بدليل أن فرعون وقومه دعاهم موسى إلى الإيمان، وبدليل أن ملكة سبأ أسلمت مع سليمان، وقد كان سليمان على شريعة موسى، وبأدلة أخرى، وبعضهم قال، كانت خاصة»، أحمد حجازي السقا، تحقيق كتاب النبوات للرازي: 189 حاشية (2) ط1، دار ابن زيدون ـ القاهرة 1986، هذا، ولم يناقش معظم المفسرين هذه المسألة.

الملك والقوة[1]، فبسطا العدل بين الناس وليس بين بني إسرائيل فقط، ووصل حكم سليمان إلى أرض سبأ[2]، مما يضفي بعداً غير قومي لرسالات أنبياء بني إسرائيل، ومما يلفت الانتباه في السياق القرآني عند الحديث عن داود وسليمان عليهما السلام غياب أي إشارة أو ذكر لبني إسرائيل[3]، أو السياق القومي لهما، وإن كان لذلك من دلالة فنراها في الانتقال العملي بالرسالة الإلهية في نسختها الموسوية وعلى يد داود وسليمان عليهما السلام من سياقها المحلي إلى العالمية؛ إذ الخلافة في الأرض التي كلف بها داود لا تأخذ طابعاً قومياً[4]، وليس كما أرادته اليهودية من بعد.

فكانت دعوة داود وسليمان عليهما السلام للرقي ببني إسرائيل وإقامة العدل بين الناس وتحقيق الاستخلاف الذي عجز بنو إسرائيل عن تحقيقه في المرحلة الموسوية، فاختصت مرحلة داود وسليمان بالملك والحكم، واشتركت في الدعوة مع رسالة الأنبياء الذين اتحد الوحي إليهم، فاختلافهما أن الأنبياء دعوا إلى التوحيد وناصروا المظلومين واضهدوا معهم، أما داود وسليمان فدعَوَا إلى التوحيد وأقاما العدل من خلال الملك.

يستأنف موسى عليه السلام دعوته إلى بني إسرائيل من حيث انتهت رسالته مع فرعون، بالاستعداد للخروج إلى الأرض المقدسة، مستكملاً سياقاً تاريخياً من الرسالات إلى بني إسرائيل، ومؤسساً لبعد جديد.

وكما يذكر داود وابنه سليمان، يرد ذكر **زكريا** وابنه **يحيى** عليهما السلام في سياق من ذكر مجموع الأنبياء، ويتمحور الحديث عنهما في حكاية نهاية

1 ـ انظر: الأنبياء: 79 ـ 80، سبأ: 10 ـ 11، ص: 17 ـ 20.

2 ـ انظر: النمل: 20 ـ 44.

3 ـ إلا ما ورد في قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: 78].

4 ـ لا نؤيد وجهة نظر محمد أبي القاسم حاج حمد عندما يلح على السياق القومي الإسرائيلي للرسالة الإلهية والخلافة، ولئن كان تحليله منسجماً مع تطور الرسالة فإن حصرها وعدّ مقصدها قومياً يتنافى مع مضمونها، لا سيما وأن ما ورد عن سليمان يؤكد انتفاء هذا البعد (انظر: حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، ط2، نشر دار ابن حزم ـ بيروت، 1996، 47/2 وأماكن مختلفة من كتابه).

سلالة الأنبياء من بني إسرائيل، فكان مولد يحيى عليه السلام هزة في المجتمع الإسرائيلي رافقها هزة أخرى تمثلت في مولد عيسى عليه السلام، وذلك تمهيداً لرسالة المسيح التي تختم عهد بني إسرائيل وتمهد للرسالة الخاتمة.

5 ـ دعوة عيسى عليه السلام: التمهيد لختم النبوة

يُعدُّ عيسى عليه السلام خاتم عقد الأنبياء السابقين الذين تحدث عنهم القرآن، ويكتسب الحديث عنه خصوصية ترتبط بما تحمله شخصيته من أهمية في الدين الذي آلت إليه دعوته، وما ثار حولها من الجدل، فكان ذكره في القرآن يستحضر هذا البعد، فتحدثت الآيات عن خلق عيسى وأُمه مريم، وعن علاقته مع قومه، وموقف بني إسرائيل منه[1]، وما أوتيه من بينات وكتاب[2]، والمهمة التي كلّف بها في بعثه إلى بني إسرائيل[3]، ثم نقد ما آلت إليه دعوته على يد أتباعه من غلو في شخصه[4]، والتأكيد على كونه رسولًا كأي واحد من الرسل ينبغي الإيمان بهم جميعاً دون تفضيل، وكون ما جاء به يتشابه مع ما جاء به الأنبياء[5].

إن تواتر الأنبياء في بني إسرائيل[6] لم يحلْ دون اختلافهم وتفرقهم [الزخرف: 63]، رغم انتشار التوراة فيما بينهم[7]، إذ فقَد الشعب الإسرائيلي في هذه المرحلة الروح الدينية، وجمد على الطقوس والمراسيم وأشكال العبادة[8]، كل هذه الظروف اقتضت تدخلًا إلهياً جديداً يعيد بني إسرائيل إلى سُنَّة موسى والأنبياء، ويذكرهم بالعناية الإلهية بإنقاذهم، فكانت

---

1 ـ انظر: آل عمران: 52 ـ 55، النساء: 157، المائدة: 78 ـ 112 ـ 114، الصف: 14.
2 ـ انظر: البقرة: 87 ـ 253، المائدة: 110.
3 ـ انظر: المائدة: 46 ـ 72، الزخرف: 63، الصف: 6.
4 ـ انظر: النساء: 171 ـ 172، المائدة: 17 ـ 72 ـ 116، التوبة: 30 ـ 31، مريم: 34، الحديد: 27.
5 ـ انظر: البقرة: 136، آل عمران: 84، النساء: 163، المائدة: 75، الأنعام: 85، الأحزاب: 7، الشورى: 13.
6 ـ انظر: البقرة: 87، المائدة: 75، الحديد: 27.
7 ـ انظر: المائدة: 46، الصف: 6.
8 ـ انظر: محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، 291/3.

أحداث مريم في المحراب، وولادة يحيى، وولادة عيسى [آل عمران: 35 ـ 51] هزة في المجتمع الإسرائيلي آنذاك، فالمسيح عليه السلام الذي نشأ بينهم في بيئة يهودية وعلّمه الله التوراة أرسل مصدقاً لها، ومجدداً دعوة الرسل إلى التوحيد ومذكراً بالآخرة[1]، ومبيناً بعض ما يختلف فيه بنو إسرائيل [الزخرف: 63 ـ 64]، محللاً بعض ما حرم على بني إسرائيل [آل عمران: 50]، ومبشراً برسول يأتي من بعده [الصف: 6]. وقد أيَّد الله عيسى عليه السلام لتحقيق هذه التعاليم بالإنجيل الذي أُوتيه مصدقاً للتوراة وهدى ونوراً وموعظة، وأُمر أهل الإنجيل بالحكم بما فيه [المائدة: 46 ـ 47]، كما أمر أهل الكتاب بإقامة التوراة والإنجيل، وفي ذلك استعادة لرسالة موسى وما جاء به الأنبياء من قبله[2]، حيث تتالوا على وصايا واحدة شرعها لهم، ووحي متشابه لجميعهم.

يُعدُّ عيسى عليه السلام خاتم عقد الأنبياء السابقين الذين تحدث عنهم القرآن، ويكتسب الحديث عنه خصوصية ترتبط بما تحمله شخصيته من أهمية في الدين الذي آلت إليه دعوته.

فكانت دعوة عيسى عليه السلام ـ كما عرضها القرآن ـ محطة في سياق الدين الذي جاء به الأنبياء عبر التاريخ[3]، فهي تتكامل مع دعوة موسى عليه السلام وكتابه التوراة، وبهذا تُعدُّ التوراة كتاباً لعيسى عليه السلام مثل الإنجيل، فهي أساس الدين الذي جاء به، والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة، وقد اختلف المفسرون[4] في طبيعة

1 ـ انظر الآيات: آل عمران: 50، المائدة: 72، التوبة: 31، الزخرف: 63.

2 ـ (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل) [إنجيل متّى، الإصحاح الخامس: 17 ـ 18].

3 ـ انظر: سلوى بلحاج صالح العايب، المسيحية العربية وتطوراتها منذ نشأتها إلى القرن الرابع الهجري، ط1، دار الطليعة ـ بيروت، ص147.

4 ـ ليس الاختلاف مقصوراً على مفسري القرآن؛ فقد اختلف مفسرو الإنجيل أيضاً حول موقف يسوع من التوراة، فقال بعضهم: إنه لا ينقض الشريعة إطلاقاً ولا يزيل منها شيئاً البتة، بل إنه يدعو ـ وهذا هو الجديد في رسالته ـ إلى «تنقية الطاعة الشرعية عند المؤمن» وذلك بالخضوع لله عن دافع روحي داخلي عميق، خلافاً لشتى أشكال الصورية الدينية والإغراءات المضافة إلى =

علاقة دعوة عيسى عليه السلام بالتوراة والرسالة الموسوية وهم في ذلك ثلاثة مذاهب:

1 ـ إن شرع عيسى عليه السلام **مستقل وناسخ كلياً لشرع موسى**، فقد جاء يحل ما حرم على بني إسرائيل، وأُمر أهل الإنجيل بالحكم بما فيه، وهو رأي بعض المفسرين[1].

2 ـ إن عيسى عليه السلام **متبع لرسالة موسى** عليه السلام **في معظم ما ورد فيها من تشريع وناسخ للبعض**، واستند هذا الرأي إلى ما ورد في القرآن من أن عيسى عليه السلام قال لهم: ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، فعلم أنه أحل البعض دون الجميع، وهذا الرأي هو المشهور من قول العلماء والمفسرين[2].

3 ـ **إن شرع عيسى** عليه السلام **لم ينسخ من شرع موسى** عليه السلام **شيئاً**، وما أخبر القرآن من أن عيسى أحله لبني إسرائيل إنما هو مما لم يحرمه الله على بني إسرائيل؛ إنما هم حرموه على أنفسهم من غير شرع إلهي، وبناءً على هذا الرأي فإن الإنجيل لم يتضمن أحكاماً ولا حوى حلالاً وحراماً؛ ولكنه رموز وأمثال ومواعظ وزواجر وما سوى ذلك من الشرائع والأحكام فراجعة إلى التوراة، وإن عيسى عليه السلام كان يعمل بما في التوراة، وكان يسبت ويصلّي نحو بيت المقدس، ويحرم لحم الخنزير ويقول بالختان، إلا أن النصارى غيروا

= تقاليد الآباء، خلافاً لهذا الموقف يرى مفسرون آخرون في تعليم يسوع انفصالاً جذرياً عن رسالة اليهودية، ويستندون في موقفهم إلى تصرف يسوع الحر والمدهش تجاه الهيكل والشريعة والتقليد والسلطات الدينية في زمانه. (انظر: الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي ـ بيروت، 1986، 1231/2).

1 ـ أبرز من تبنى هذا الرأي البيضاوي في تفسيره، انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، ت: عبد القادر العشا، ط: دار الفكر ـ بيروت، 1996، 43/2 ـ 331، وقد نقل هذا الرأي أبو السعود في تفسيره وكأنه يتبناه؛ ولكنه فهمه فيما يبدو على أنه كالرأي الثاني، انظر: محمداً أبا السعود العمادي، إرشاد ذوي العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ط: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، 44/3.

2 ـ انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط: دار الفكر ـ بيروت، 1405هـ، 281/3، الزمخشري، الكشاف، ط1 دار الكتب العلمية ـ بيروت 1995، 497/1، تفسير أبو السعود: 40/2، تفسير ابن كثير دار، الفكر ـ بيروت 1401هـ، 366/1، 65/2، الألوسي، روح المعاني، ط: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، 171/3.

ذلك بعده فاتخذوا يوم الأحد بدل يوم السبت وغير ذلك من أحكام، وهو رأي عدد من المفسرين[1].

إن هذا الجدل الذي خاض فيه المفسرون والمتكلمون متأتٍ من افتراض نسق خاص لكل رسالة ويستند إلى رؤيةٍ قوميةٍ دعوات الرسل، بينما تتواتر في القرآن شواهد العلاقة التكاملية بين جميع الأنبياء وتنحصر خصوصيتهم في الشرعة والمنهاج، وليس في أصول الرسالات المشتركة بين الجميع، فالحديث عن استقلالية رسالةٍ ما كلياً أو تبعيتها أيضاً يتنافى مع طبيعتها، فكل رسول يصدق الرسل والكتب ويكمل ما جاءوا به، ويصحح ما حرفه أتباع الرسالة السابقة. فكل السياقات القرآنية تؤكد أن عيسى عليه السلام لم يكن إلا واحداً من رسل الله، جاء مصدقاً بكتب الله وأنبيائه جميعاً مَنْ تقدم منهم ومن تأخر[2]، وليس كما انتظر اليهود أن يكون محققاً لأمانيهم، إنما سعى للعودة بهم إلى روح الدين والأفق الأسمى الذي جاء موسى عليه السلام ليؤهلهم لبلوغه، وهو الانتقال إلى الجانب الكوني للرسالة الإلهية والقيام بالخلافة في الأرض، فكان ربطه الصريح باقتراب انتهاء عهد التدخل الإلهي وتبشيره برسول خاتم ينتهي به الوحي، وفي هذه النقطة تتجلّى خصوصية دعوة عيسى عليه السلام؛ **إذ تمثل مرحلة انتقالية في الرسالة الإلهية؛ فهي تستعيد تاريخ الأنبياء وتختم مشروعهم في تأهيل الإنسان لتلقي التعاليم النهائية في الرسالة الخاتمة** والتي لن يحتاج الإنسان بعدها إلى وحي جديد.

> **إنّ هذا الجدل الذي خاض فيه المفسرون والمتكلمون متأتٍ من افتراض نسق خاص لكل رسالة ويستند إلى رؤيةِ قوميةِ دعوات الرسل، بينما تتواتر في القرآن شواهد العلاقة التكاملية بين جميع الأنبياء.**

1 ـ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت: أحمد عبد العليم البردوني، ط 2، دار الشعب ـ القاهرة، 1372هـ، 96/4؛ تفسير ابن كثير: 366/1؛ الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط: دار الفكر ـ بيروت، 342/1؛ الألوسي، روح المعاني: 171/3 ـ 172؛ أحمد حجازي السقا، مقدمة كتاب النبوات للرازي: 34.

2 ـ انظر: الزمخشري، الكشاف: 513/4.

وسيجد أتباع عيسى عليه السلام من بعده أنفسهم أمام تحدٍّ جديدٍ يتمثّل في مجابهة دين سابق عليهم وهو أساس ديانتهم، مما سيجعلهم في صراع مع اليهود وتنازع لادعاء امتلاك الحقائق، فستتكرر مع النصارى دعاوى اليهود فهم أبناء اللّه وأحباؤه [المائدة: 18]، ولن يدخل الجنة إلا النصارى [البقرة: 111]، واليهود ليسوا على شيء [البقرة: 113]، والهداية محصورة مع النصارى [البقرة: 135]، حتى اشترطوا على الرسول الخاتم اتباع ملتهم [البقرة: 120]، والأنبياء: إبراهيم عليه السلام ومن بعده كانوا نصارى [البقرة: 140].

ويبدو واضحاً أن السياق القرآني يستحضر تاريخ المسيح ودعوته؛ ليربط ماضي الإسلام بحاضره كدين تقوم دعوته على التوحيد، وليبرز التكامل الرسالي الذي درج الأنبياء على تأكيده، والذي توج بختم النبوات؛ ليتولّى الإنسان بعدها مهمة الاستخلاف بنفسه من غير تدخل إلهي.

6 ـ الخاتمة: ختم النبوة ومسؤولية الإنسان

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأنبياء إخوة لعلّات؛ أُمهاتهم شتى ودينهم واحد»[1]، هذا التشبيه النبوي للعلاقة بين الأنبياء تعبير عن **ثنائية الوحدة والاختلاف في الرسالات، والخصوصية والتكامل في دعوة الرسل**، فكل نبي في زمانه ومكانه والبيئة التي بعث فيها يشدُّ قومه إلى أفق واحد، يتعالى على التاريخ، ويلتحم بالمطلق والحقيقة التي يتطلّع إليها الإنسان بفطرته، **هذا الأفق يشكل نسقاً واحداً توالى الرسل على إكماله ودعمه إلى أن خُتمت النبوة**، فأصبح التاريخ الرسالي في القرآن أنموذجاً يهتدى به، وتتكامل دعوات الرسل في ترسخ منظومة من القيم والمبادئ الأخلاقية التي تسمو بالإنسان، وتترفع به عن توثين المادة والإخلاد إلى الأرض، تلك الروحانية التي جاء بها النبيون ليخففوا من المادية التي طغت على أقوامهم، وحُرِّف

1 ـ أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة: 406/2 (9259)، 437/2 (9630)؛ والحاكم في المستدرك على الصحيحين: 648/2 (4153)؛ وابن حبان في صحيحه: 233/15 (6821) ت: شعيب الأرناؤوط، ط2، مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1993؛ و«بَنُو العَلَّاتِ: بَنُو رَجل واحد من أُمهات شَتَّى»، ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر ـ بيروت، 470/11.

بسببها دين الأنبياء لينسجم مع طغيان الإنسان وأنانيته، فكانت الرسالات إيذاناً بأن النجاح في جميع مؤسسات الحياة مشروط بدينونتها للقيم الأخلاقية العليا، والتي جاء الرسل يؤكدونها ويدعون الناس لتمثلها، فكانت سيرة الأنبياء وأقوامهم في القرآن بمثابة عرض عملي وتاريخي سنني يرادف العرض النظري للمبادئ والقيم التي لخصتها الرسالة الخاتمة.

فختم النبوة ـ التي انتهى مبرر وجودها بعد اكتمال الدين ـ هو دعوة للإنسان أن يتحمّل مسؤوليته في إعمار الأرض مستنداً إلى ما أيده الله به من علم، وما أرشده إليه من هدي عبر الأنبياء من آدم عليه السلام فمن بعده من الأنبياء إلى أن ختمت الرسالات، فما جاء به الرسل ودعوا إليه ـ وكما عرَّف به القرآن ـ إنما يمثل ما يحتاج إليه الإنسان من مبادئ يعصمه التمسك بها من الفشل في الخلافة في الأرض، وبتعداد نماذج من أهم ما ورد من مقاصد دعوة الرسل ندرك البعد الإنساني المشترك فيها، فقد تتالى الرسل يدعون إلى تحرير الناس من أي سلطة تتدخّل في شأنهم الديني وتكرههم على دين ملوكهم، كما حارب وجميع الرسل الظلم بأنواعه، وسعوا إلى نشر العدل بين الناس، فانتصروا للمستضعفين وحاربوا الطغاة، وارتقوا بسلوك الإنسان الأخلاقي، معتمدين في ذلك على ترسيخ مبدأ التوحيد كمربط للقيم والفضائل كلها.

ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الأنبياء إخوة لعلّات؛ أُمهاتهم شتى ودينهم واحد»، هذا التشبيه النبوي للعلاقة بين الأنبياء تعبير عن ثنائية الوحدة والاختلاف في الرسالات، والخصوصية والتكامل في دعوة الرسل.

إن خصوصية دعوة كل رسول ارتبطت بتجربته مع قومه الذين بعث فيهم، والتي شكلت إضافة عملية في تهيئة الإنسان لمرحلة جديدة من الوحي إلى أن آذنت الرسالة الخاتمة بانتهاء عهد صلة الإنسان بالله عبر الوسطاء، ليحل النص بديلاً وعقل الإنسان وسيلة، فلخّص القرآن دعوات الرسل، وأكد على اشتراكها في المحتوى والمقصد، فالنبوة ـ كما عبر فضل الرحمٰن ـ وحدة غير قابلة للتجزيء، فرغم كون الأنبياء والرسل

أرسلوا إلى شعوبهم أول الأمر، غير أن الرسالة التي يبلغونها ليست محلية فحسب، بل تحمل مغزى كونياً[1].

لقد جاء ذكرُ الرسـل يتواتر في القرآن بطرق مختلفة بحسـب سياق كل سـورة، فتارة يكون لذكرهم دور في تثبيت النبي ﷺ ومساعدته على الصبر وتحمل أذى قومه، وتارة يأتي ذكرهم في إطار عرْضٍ لسنّة إلهية في التاريخ، وأخرى في سـياق محاجة أهل الكتاب حولهم أو حول مضمـون ما جاءوا به، وجميع تلك السـياقات تقوم بوظيفة أساسـية، وهي صهرهم في بوتقة واحدة ودين واحد ورسالة واحدة.

لقد بدا مفهوم الهداية مركزياً في الحديث عن الرسـل، فبدأ مع دعوة آدم، وأكدت عليه الآيات التي تحدّثت عن الأنبياء الذين أرسلوا هداة للناس، ووصف القرآن الوحي الإلهي والكتب المنزلـة بأنها هدى، هذه الوظيفة هي العنوان المشـترك بين دعوات الرسـل والكتـب المنزلة، فكانـت ولا تزال أهميتها قائمة للإنسان في الحياة، فـالحيرة والارتباك الأخلاقي للإنسان لا يسـاير تقدمه المعرفي، لذا فإن «النضج الأخلاقي للإنسان مشروط ببحثه الدؤوب عن الهداية من الكتب السماوية، خاصة القرآن الكريم»[2].

1 ـ انظر: فضل الرحمٰن مالك، المسـائل الكبرى في القرآن الكريـم، ترجمه: محمد أعفيف، ط1 دار جداول ـ بيروت، 2013، ص 172.

2 ـ المصدر السابق، ص 174.